نردين أبو نبعة

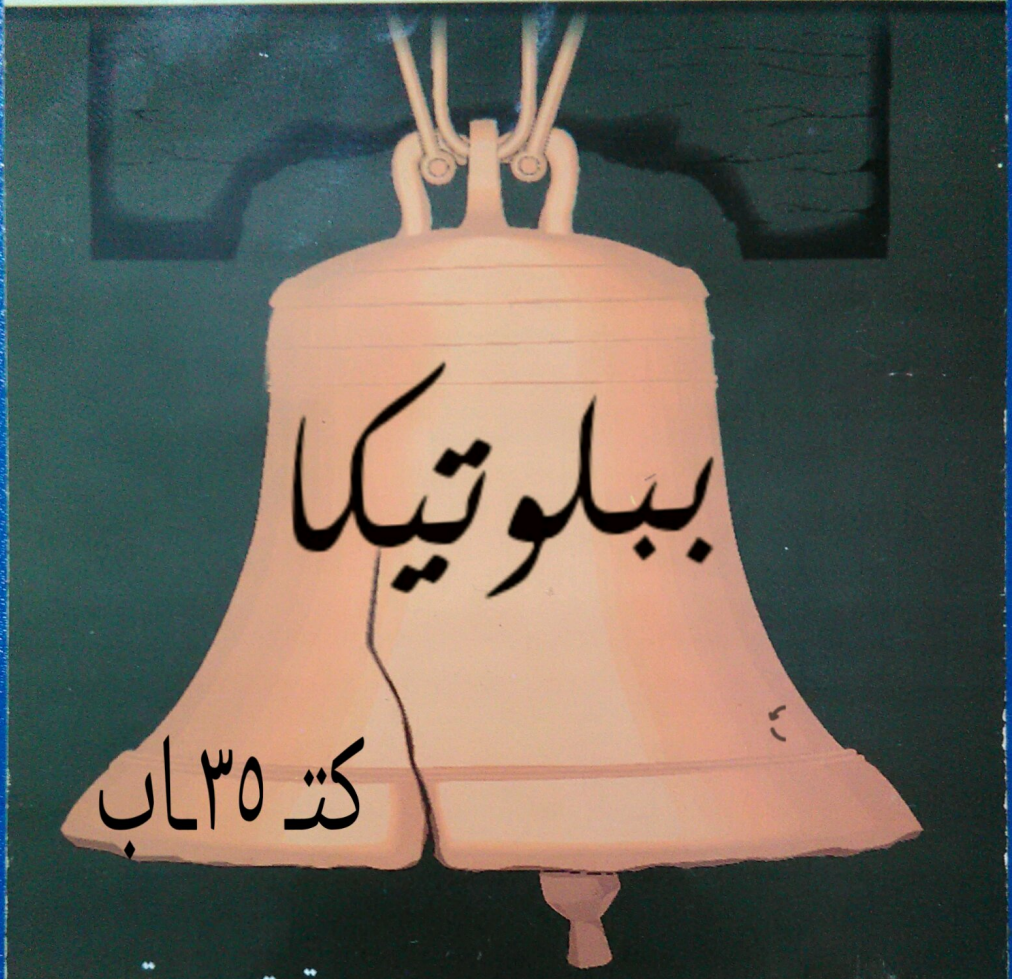

ببلوتيكا

كتاب ٣٥

مجموعة قصصية

الجرس

دار البشير

نردين أبو نبعة

مجموعة قصصية

الجرس

taz 356027

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء..

إليها ..

وقد رَحَلَتْ وعلى شَفتاي كثيرٌ من الحكايا التي تنتظر وكثير
من الأمنيات التي سأغزلها.. بقوتها
إليها وما عادت تحتمل الحياة...
وما عُدنا لولا طيفها نحتملها
نُطعّم الحقيقة قليلاً من السراب
لنجعلها أكثر إحتمالاً

إلى أمي

وإليه..

وقد حَمَلَنا على ذاكرته إلى الوطن..
بدل إنتظار العودة..
وحاك في قلوبنا بأن من لا يمضغُ العتمةَ مَضَغتْهُ
ورسم لنا.. ملامح الغيوم.. والأشجار.. والزقاق..
وهمس لنا.. «من رحل عن وطنه... سكن فيه الوطن..

إلى أبـي

الأرجـــوحـــة

تَرقبُ السيّاراتِ وهي تتناوبُ الأدوارَ.. قُدوماً ومُغادرةً على مرآب السيّارات.

بعضُ السيّاراتِ تتسلّقُ المكانَ.. فتسقطُ.. ثُمّ تتسلّقُ.. فتسقطُ.. مرّات.. ومرّات.. حتّى تجدَ لها مكاناً.

والبعضُ الآخرُ يجدفُ ويجدفُ ثُمّ.. لا يرتضيهِ المكانُ..

وآخرون.. لا يحرثونَ البحرَ.. بل يحتسونَ المكانَ.. بكلّ بهاءٍ..

ضحكاتٌ من بعض المارّةِ.. تقطعُ عليها تأمّلَها.. تتكاثرُ المشاهدُ.. أمامَها.. حتّى تختلط..

أغمضتْ علياءُ عينيها.. وألقت برأسِها.. على مسندِ السيّارةِ.. وتساءلتْ.. بصوتٍ مسموعٍ.. لصديقتِها:

– «لِمَ لا تكونُ النوافذُ مفتوحة.. يا ترى؟».

تضحكُ الصّديقةُ بصوتٍ.. عالٍ: «أية نوافذ تقصدين؟».

تشيرُ علياء.. إلى صديقتِها القابعةِ.. جوارَها.. مُتناسيةً.. سؤالَها: «انظري.. انظري.. كيفَ تتقهقرُ بعضُ السيّاراتِ فتغادرُ المكانَ وآخرون يتقدّمونَ يقرعونَ المكانَ بنشوةٍ».

تزمُّ صديقتها شفتيها بازدراءٍ.. وتتابعُ تحديقَها بالمارّةِ.. علَّها ترى ما تراهُ علياء..

تصرخُ علياءُ:

– «يا صديقتي.. إنَّهم يقرعونَ المكانَ بنشوةٍ.. مُتناسينَ أنَّهم في لحظاتٍ قادمةٍ سوفَ يستهلكُهم الوقتُ وَسَتَقْذِفهُم الأرجوحةُ.. بعيداً.. بعيداً.. كما قذفتْ مَنْ قَبلَهم.. يترسّبون في الذّاكرةِ.. أو يُبلِّلهُم النّسيانُ».

الكيس الأسود

أَلِفَتُ وجهَهُ الذي يستقلُّ الحافلةَ كلَّ يومٍ.. كوفيّتُه المُرقّطةُ «تحوي» رأسَه بفوضى.. ثمّةَ تجاعيدُ تغتالُ جبينَهُ بقسوةٍ.. كان يلحقُ بالشّوارع من مكان إلى آخر.. وكأنّما يلحق بشيء فقدَه.. يحملُ كيساً أسودَ خُيّلَ إليّ أنّه مثلُ الصّندوقِ الأسودِ الذي تحملُهُ الطّائراتُ والذي يحملُ التفاصيلَ السّابقَة لوقوعِ كارثةٍ ما.

في عينيهِ حيرةٌ.. تقف على حدودِ التماس مع يديهِ التي تهتزُّ دونما سبب.. السّماءُ تمطرُ.. تخنقُ القمرَ.. القمرُ ينزوي في أبعد نقطةٍ غير مرئيّةٍ الطّريقُ مشبعٌ بالمارّةِ الرّاكضين من حبّاتِ المطرِ الأزلي.. وأصحابُ البسطاتِ في مجمع رغدانَ يهربون كعصافيرَ تحملُ قوتها إلى أعشاشِها.

الحافلةُ تتوقّفُ.. النّاسُ يتراكضَون مُحاولينَ الحصولَ على مقعدٍ.. يصعدُ العجوزُ بسرعةٍ يمتلك مقعداً.

تشتعلُ عينا العجوز بلونٍ فاقع.. تدورُ حدقاتُ عينيه باضطرابٍ وهو يتابُع شابّاً يمسكُ بأمّه وهو يتأفّفُ. يستعجلُها أن تمشيَ بسرعةٍ وملامحُها تنبئُ بأنّ المرض قد دسَّ أصابعَهُ في جسدِها النحيلِ المُتراخي.

مُستعدٌّ للانحناءِ أربعينَ عاماً للوراء. لالتقاطِ كلمةٍ واحدةٍ: «الله يرضى عليك يا إبني».

هكذا خاطبَ العجوزُ ذا الكيس الأسودِ.. الشابّ الغاضبَ.

يصرخُ بحرقةٍ.. تنضغطُ أوداجهُ وهو يمرّر الكلماتِ من شفتيهِ.. العروقُ توشكُ أن تفرَّ مِنْ يَديهِ.

كان أبي رجلاً من أثرياءِ البلدةِ.. تُوفيَ أبي وتركنا نحنُ وأُمي: أربعة أولاد وفتاتان.. رويداً رويداً تنفستْ الأموالُ كالبالون وتفصّدتْ كبقعةِ حبر لوّثت قميصاً أنيقاً.. وانتقلتْ أمّي من القصرِ المُنيفِ.. إلى إحدى البيوتِ التي تبنيها العائلاتُ الكبيرةُ لبناتِها في حالِ ضجرِ الثراءِ ببناتهم.

تنهَّد واسترسلَ في الحديث: «إنّي أتعجّب يا بُنيّ ممّن تأتيهِ فُرصةٌ ولا يقتنصُها».

«أيَّةُ فرصة أيُّها العجوزُ؟» رفع الشاب يدَه باستهجانٍ:

«ها الختيارِيّة شاطرين بالمواعظ.. والله يا حجّي راسي مليان مواعظ وحِكم، زهقت خليك في حالك».

– «يا إبني من عنده أم.. عليه أن يضعَها في عينيهِ ويغمضهما عليها.. وإلا فإنَّكَ ستصحو يوماً بلا عينين».

الكلّ في الحافلةِ يُحدّق في العجوز.. ينصتُ إليه:

– «يا إبني آه.. كم تأفّتُ وكم نهرتُ في وجهِ أميَ وكم كانت تتجاهلني، تُحاول أن تبتعد عنّي تفادياً للحظةِ انفجار.. لكنّي كنتُ ألحقُ بها في أرجاءِ المنزل.. أطلبُ نقوداً لا تملكُها لأنفقها في نشوةٍ من نشواتي.. وعندما تقول لي: والله يا إبني لا أملكُ ثمناً لدوائي!! أبدأُ بتكسيرِ محتوياتِ المنزلِ وأخرجُ».

«وجهُها يُطاردني.. أتجرّعُه في شَرْبةِ الماءِ.. لُقْمةُ الخبز التي كانت تِغْمسها بملح الليمون فيزيدُ معدتِها ألما تتدفّقُ صوراً

تُطاردني في الشّوارعِ.. تُطاردني الصّورةُ. أرشقُها أهربُ .. أهربُ فتقذفني سكناً أبدياً يأبى الرّحيل.

آه يا إبني.. يحدثُ أحياناً أن نهبط على رؤوسِ أَصابِعنا في مدرجِ الطّائِرات لنلحقَ بالنّورِ بعد التوغّل بعيداً جّداً في الظّلمةِ».

الشّابُّ الغاضبُ يمصُّ شفتيهِ بخجلٍ.. يتكوّمُ على المقعدِ.. ويضعُ يديه على كَتفي أُمّهِ.. يُقَبِّلُ رأسَها.

النّاسُ في الحافِلة يتابعون الضّبابَ وهو يتلاشى.

رجلٌ في مؤخّرةِ الحافلةِ يصيحُ:

– «وماذا حصل لأمّكَ؟»

– «يُتمتمُ وهو يلفُّ رأسَهُ يميناً ويساراً» يصرخ بصوتٍ مُتهدّل:

– «ماتت أُمّي وهي تُحبُّني.. ماتت أُمّي وهي تُحبُّني».

يتوقّفُ الباص.. ينزلُ الركّابُ.. الكلُّ يتابعُ العجوز وهو يتلاشى في الطّريقِ المُظلمِ.. مُسّدلاً كوفيّتَه على وجههِ.. ناصباً تمثالاً لطائرٍ منتوفِ الرّيشِ.

نُبـــــوءَة

صـاحت الجـدّةُ مُـشكّكـةً في كـلامِ والدي: «أخـشى أنّكَ تحلم». ويعـود والديّ يصرخ بحدّة مُكرّراً ما قالهُ.. بصوتٍ يهتزُّ لمُزاحمةِ وهجِ الفرح أوتاره.

– «إنّي أعني مـا أقـولُ.. واللهِ أعني مـا أقـول.. هيّـا جهّـزوا أنفسكم.. أنا ذاهبٌ والرّجالُ لاستئجارِ سيّارةٍ كبيرةٍ تحملنا إلى وطنٍ إن لم نَعِشْ فيهِ فقد عاشَ فينا».

عـدّلت الأمُّ منديلهـا.. أزاحـتـهُ عن أُذنيـهـا لتـتـيـقن أنّ مـا سمعتْهُ صحيحاً.. صكّت على وجهِها حدّقت في وجههِ: «هل يعني والدك ما يقول؟».

ضحكَ عامر.. بنهم: «أنتِ يا أُمّي تصكيّن على وجهكِ في السرّاءِ والضرّاء.. أرجو أن تجعلي مراسمَ للحُزن وأخرى للفرح».

تنهمكُ النّساءُ في تحضيرِ ما تبقّى من بقايا أثاث.. يُغلفُّونَ كلّ شئ.. أكوابَ الماء.. اللحف.. البسط.. الصّور.

جاءَهُ.. صوتُ أمِّهِ من الدّاخلِ.. تحثُّهُ على إخبارِ جدّتهِ بضرورةِ أن تتذكّر أينَ خبّأت مِفتاحَ المنزل..

أخذَ الرّجالُ يحمّلونَ الحاجيات.. يُكدّسونها فوقَ بعضها البعض في الشّاحنةِ.. ثُمّ تتربّع النّساءُ والأطفالُ فوقَ الأَشياء، أمّا الرّجالُ فيأخذون أماكنهم بجانبِ السّائق.

صوتُ عجلاتِ الشّاحنةِ يُثرثرُ مع الإسفلت بمحبّةٍ.. حتّى عندما تهتزّ الشّاحنةُ بفعلِ الحُفر.

يختلطُ الصّوتُ بهمهماتِ الرّكاب الذين يتشاورونَ في أوضاعِهم التي سيكونون عليها بعدَ وصولهم.

النّساءُ ساهمات صامتات يُحدقنّ بإتجاهِ مؤشّرٍ واحدٍ، لا يُصدّقنَ أنّ أهدابهنّ في طريقها للصّعود..

أمّا الأطفالُ الذين ولدوا وكبروا في المنفى.. يرسمونَ بعيدان الحلمُ نوافذَ تطلُّ على صحوٍ أضحى قريباً.

أحاديثُ الآباء وذكرياتهم.. قصصُ الجدّات الليليّة المُعطّرة بالحنوّ.. يُرتّبُ الأطفال أحرفَها التي تبعثرت لتكوّن أهزوجةً واحدةً لطالما تعبّدت في أدغالِ الآباء وفي أحلامِ الأطفال الضّاجّة بالخيال.

الشّاحناتُ المُحمّلةُ بالعائدين تسيرُ بعضها وراءَ بعض كسربِ طُيورٍ تسيّد الرّحيل.

صوتُ عامر الصّغير يحلفُ أغلظَ الأيمان مزهوّاً بمعرفةِ القريةِ شبراً.. شبراً مع أنّهُ لمن يرها.

يُؤشّرُ بيديهِ الصّغيرتين بأنّ مسجد القريةِ بقبّتهِ الزّرقاء المُزركشه باللون الذّهبيّ يقعُ بجانبِ بيت جدّهِ.. أمّا شجرةُ الزّيتون الرّوميّة الكبيرة فهي مُحاذيه لبيتِ عمّهِ.. الذي كانَ يُخبئ أسلحتهُ وأسلحةَ الثوّارِ في بطنِها الكبير؟.

استدارَ مصطفى بغضب وطالب عامر أن يصمت قليلاً ليبين للأولاد نباهته ومعرفته أيضاً بكلّ ما في القرية وأخذ يحلف بأنّه يشتمُّ رائحةَ زيت الزّيتون الذي تدهنهُ الجدّة لأبيّه في رغيفِ خبزٍ

ساخنٍ وطازج خرجَ لتوّهِ من الطّابون، ويعرف أين تنبت (الميرميّة) والزّعتر والعكّوب، وأنّه سيقتلع الزّعتر فورَ وصولِهِ للقرية، لتصنع لهُ أمه أقراصاً من الزّعتر يأكل منها ويُطعم كلّ رفاقه.

النّساء السّاهمات.. يمسحن حبّات العرق المُتدحرجة على جبهاهنَّ فيشعرن أنهنّ يتخاصرنَ بخفّةٍ مع البهجة.

تُوقنُ الجدّات المكلّلات بالسّواد أنّ ذاكرةَ الأطفالِ التي حَسبوها ذاكرةً باهتةً ما هي إلا ذاكرة مشتعلة بلا نار.. تحمل كل ثرثرات الجدات وقصصهم المثيرة لشهية النوم.

غير أنّ الأولاد الأكبر سنّاً، والذينَ عاشوا نيفاً من الزّمنِ في بلادهم قبل أن يرحلوا يتغامزون على الأصغر سنّاً بأنّهم يحلمون بوطنٍ لم تلفح وجوههم شمسه.

يتمدّد سعد على أحدِ الأبواب المثقوبة بالرّصاص. يتحدّث بلكنةٍ فلاّحيّة تحمل كثيرا من الزّهو:

يا أخي من ينبت في العراء.. فإنّهُ يركضُ نحو ساعة تدقُّ دقّات العودة دونَ أن تقصدَهُ دقّاتها، أمّا من ينبت ويزهر في بلادِهِ.. تبحث عنهُ الجذور، وإن استطالَ واستطال.

ينكمش الأولادُ الأصغر سنّاً.. يرتعشونَ.. يذرفونَ الدّموع... يركضونَ إلى الأمّهات.. يشكون لهنّ قسوة الكبار.

تكتظُّ الأصوات.. تعلو الهمهمات يتقافز الرّجال من الشّاحنة.. يسجدونَ على التّراب.. يلثمونَ التّراب ويلثمهم..تُسارع حبّاتُ الرّملِ تُدغدغ بَواطنَ أقدامهم.. فتعلو ضحكاتٌ لطالما إختنقت في رئتين مُهاجرتين.. يصحو.. النّهر.. ويحضنُ الصّغار.. تمسحُ الأشجارُ على رؤوسِ الأطفالِ.. تمسك بوجوههم وتمرّغ أوراقها بدموعهم.. فترتوي.. ترفعهم عالياً.. فيتطايرونَ.. فرحاً.

القُبورُ لا تفتح عينيها إلاّ لأحبّتها

تبدأ الحكايةُ من عينِ الكاميرا.. عين الكاميرا..التي ترصدُ الورودَ والجنازات والخوف والطّمأنينة.

عندما تشعر بالإعياء.. وأنّها أوشكت أن تغيب عن الوعي.. تُطلق بعضَ الزّفرات التي يفهم منها المُصوّر أنّ عليهِ أن يُعجّل تلقيمها فيلماً جديداً.. وعندما يختمرُ الفيلمُ تبدأ عجلةُ البحثِ عن أعراسِ نجومٍ تتوافد من الأرضِ إلى السّماء.

تُثرثر الكاميرا مع المُصوّر.. بحميميّةٍ: «أتدري؟ إنّي أستغربُ تعثُّر عيني ببعضِ النّجوم على الأرض.. ولا ينجلي الاستغرابُ إلاّ بعدما يكونُ النّجمُ قد اعتلا قُبّة السمّاء».

يربتُ المُصوّر على كتفِ الكاميرا.. مُشيراً لها أن تصمتَ وأن تنشرَ عَينها في ذلكَ الزّقاق الذي يُخشخشُ بوجعٍ.. تحملهُ هبّاتُ الرّيح.

يركضُ المُصوّر بحذرٍ. يختبئ خلفَ المتاريس تارةً.. وتارةً يلحق بالسّنابلِ التي يقصفها المِنْجَلُ.. بدمٍ باردٍ كسول.

عينُ الكاميرا تدمعُ.. شهيقٌ وزفيرٌ يعلو.

يصرخُ المُصوّر وهو يكزّ على أسنانِه حتّى لا تترجل الكلمات من شفتيه فَيَنْتبه لهما القنّاص.

– «أرجوكِ لا تدمعي.. حتّى لا تتغبش الصّورة.. هذه الأنفاسُ الحارّة سوفَ تفضحنا.. سيكتشفونَ أمرَنا.. وعندها لن تحظى الحقيقةُ بضجيجٍ يُغلق أبواب.. الشّيطان».

– «آه كم تتحذلق عليّ أيّها المُصوّر.. انظر إلى عينيكَ أيهّا المُصوّر المُتّشح بأصولِ ضبطِ النّفس.. حتّى تعد وجبة شهيّة للإعلام.. انظر إلى يديكَ المُرتعشتين.. حتّى أنّني لا أستطيعُ أن أُطوّق المشهد بالإطار».

يشتدُّ العِراك.. ما بينَ الكاميرا والمُصوّر.. تلتقطُ عينُ الكاميرا.. المشهد رغماً عن الغبشِ والارتجاج.

القدمان تَنجران على الأرض.. تَرْجُمُ خطايا خيول تُؤجّل النّزالَ والعُنق مُتدلٍّ بينَ اليدين كعُنق ذبيحةٍ لتوّه أنهى الجزّارُ جَزَّ عُنقها.

نبراتُ صوتِ الكاميرا والمُصوِّر.. تعلو.. تُغطيّ رجفة المكان.. ينتبهُ لهما القنّاص.. يرفع المُصوّر الكاميرا.. ليثبت للقنّاص أنّه مُصوّر قناة فضائيّة.. لكنّ المُصوّر والكاميرا أيقنا أنّ القَنّاص.. يُصوّبُ نحوَهُما غيرَ عابئ بالكفّ العارية.

يركضُ المُصوّر.. تلطمُ الكاميرا خدَّها.. خشيةَ أن ينبشَ القنّاصُ الفيلمَ الذي في قلبِها فتضيع الحقيقة.

مشهدُ الشّاب.. يُكلّل عينيهِ يمدّهُ بقوّةٍ تُنيرُهُ من الدّاخل..

القنّاصُ يلحقُ بالمُصوّر.. المُصوّر يُسابقُ خطواتهِ من زقاقٍ إلى زقاق.. يقفزُ عن سورِ المقبرةِ.. يندسُّ بينَ القبورِ.

يتنفّسُ المُصوّر الصّعداء.. تمضي ساعة.. ساعتان.. ثلاث..

والقنّاص يركلُ الأحجارَ.. بغضب.. يخلعُ أعشابَ القُبورِ..

يتعثّرُ القَنّاصُ بالقبورِ.. تركلُهُ.. يسقطُ أرضاً.. تلتفّ الأعشابُ حولَ عُنقهِ.. يُولّي هارباً.

يتبسمُ المُصوّر.. تتوسّد الكاميرا صدرَ المُصوّر بفرحٍ..

يصرخُ: «أيّها القنّاصُ.. القُبورُ لا تفتحُ عينيها إلاّ لأحبّتها.. هل تسمع؟ إلاّ لأحبّتها».

الجَـــــرَسُ

كانَ الوقتُ ظُهراً.. الشّمسُ تتشَّبثُ بخدِّ السَّماء.. وتلبسُ ثوبَها البُرتقالي في زَهو..وهارون يمسكُ بالطّباشير.. تختلطُ حبّاتُ العَرَقِ.. المُتساقطةُ من جبينهِ.. بِرُسوماتِه.. المُنتصبةِ على أسفلتِ الشّارعِ..

انتزعتني رسوماتُه من نُعاسي.. لم أَكُن أهوى المَعارض.. التي يُقيمها الرسّامون.. ولم أُفكّر يوماً بزيارةِ معرضٍ لرسّامٍ ما..

ولم يكن يملكُ المالَ.. ليقيمَ معرضاً بقامةٍ ممشوقةٍ.. فهَمَسَ برسوماتِه إلى إسفلتِ الشّارِع.. في الهواءِ الطّلق..

كان الشّارعُ مهجوراً إلاّ من بعضِ المارّةِ.. بدأ يُلقي خيوطَهُ على أسفلت الشّارع.. النّاسُ يتراكمونَ رويداً.. رويداً.. يتغامزُ.. البعضُ... البعضُ... يضحكُ ويُخبّئُ ضِحْكتهُ بأصابِعِ يديهِ... آخرون يهمسون: «إما أن يكون أحمق.. أو لعلها وسيلةٌ أخرى للمقاومة»..

يردّ آخر...

– « مُقاومةُ من ؟! ».

– « مُقاومةُ ذاتهِ.. مُقاومة الإنكسار.. المُهمّ.. أنّها مُقاومةً ».

يسمع الهمس.. يضحكُ.. وأنينٌ.. صامتٌ.. يفوحُ.. من عينهِ..بَدَا وجهُه مُرهقاً.. يداهَ تلتصِقانِ بالأسفلتِ.. الطّباشيرُ.. تستجيبُ لتوسّلاته.

قفزَ على الأسفلت.. ولدٌ.. يُديرُ وجهَهُ عن أمّهِ.. المجروحةِ.. الحبل السُّري.. لَونُهُ بلونِ العفن.. أوراقُ خريف.. يدوسُها المارّةُ.. تتنامى في أرض اللَوحة.. ذبابٌ يتكاثرُ كأنّه سياجٌ حديدي مدببٌ يُحاولُ اختراق جسد الأمّ.. رأسُ الإبنِ يتحول إلى رأسِ بقرةٍ.. يَحلبُها رجلٌ.. يُديرُ وَجَهه للعالمِ.. الصّمتُ.. يستوليَ علي الشّارع.

لم يكد ينتهي من رسوماتهِ حتى شعرَ بتوقّفِ السّياراتِ..الكلُّ مُحدقٌ بهِ.. أنفاسُهم محبوسةٌ.. وتَعالَت أصواتٌ:

- «ليس مجنوناً».

- «ليس بأحمق».

الكلُّ يصيحُ مُطالباً بالمزيدِ من الرّسم.. بدأت الشَّمسُ تميلُ إلى الزّوالِ وعَرقُ هارون بدأ يتملّصُ من وجههِ.

قالَ رجلٌ من المُتفرّجين:

- «لماذا يتحمّل كلّ هذا العناءِ ليرسمَ لنا؟!».

ردَّ آخر.. يتمتم.. وهو يَحجبَ فمَهُ.. بأصابعِهِ:

إنّها لعبةٌ.. لقد كُبِّل.. شعرَ.. بضعفهِ.. لم يُطق العيشَ وهو مسحوقٌ.. فصرخَ.. للأسفلتِ.. إن هذهِ الأيدي المُتسخةِ بسوادِ الإسفلتِ لا تفرّق بين سوادِ الأسفلتِ.. وسوادِ.. البّواباتِ النّائمةِ.

أُصابُ بالدّوار.. أشربُ قهوةً ممزوجةً بالدّهشة.. ألحظُ.. أنّ لي جُذورا.. تتشبثُ.. بالأرضِ.. الرّصيف الهائجُ بالمارة.. يَصمُّ أذُني.. المارّةُ.. يُحاولون أن يدفنوا رؤوسَهم.. في صدورِ بعض حتّى.. لا يروا أعينَ بعضَ.. فيصحو.. الحبُّ من جديد.

الطّائرةُ الورقيّة

كادَتْ أصابِعُهُ تمزِّقُ هَذهِ الأوراقَ التي ما فَتِئَ يَصنعُ منها طائراتٍ ورقيّةٍ.. لكنّ طَرَقاتٍ سريعةٍ.. على البابِ.. جعلتْه يتراجَعُ.. قامَ ليفتح الباب.. وإذا بمجموعةٍ من أطفالِ الحيِّ يطلبونَ طائراتٍ ورقية فعدَلَ عن الفكرة.. وبدأ من جديدٍ يقصُّ الأوراق.. ويطعمُها للهواءِ..

أمسكَ أحدُ الأطفال بالطّائرةِ.. وأطلقَها في الهواءِ.. أحسَّ.. أنّ روحَهُ الحبيسةَ قد انعتقت.. وحلّق عالياً مع الطَّائرة..

– «كُنتُ أُحِسُّ.. بأنّي أبتلعُ كُلَّ المُدنِ.. مملوءاً بالفرح.. عندما أَصعدُ إلى الطّائرة.. يغازِلُني القمرُ.. وعندما تبدأ الطّائرةُ بالإذعانِ لي.. أُحِسُّني أمتلكُ الكون سماءً وأرضاً».

بَدَا وَجْهُ مَنْصُورٍ في ذلكَ اليومُ مثقلاً بالهمومِ.. عيناهُ المُرتبكتان امتدادٌ لملامحَ.. ملايين.. تَضُجُ.. بأنفاسٍ.. مخنوقةٍ.. يداهُ تنتفضانِ كلّما بدأ بقصِّ الأوراقِ ولصقِها..لَعلهُ.. يُحسُّ بخيبةِ نجمٍ أُجبر على اعتزال السّماء.

النّهارُ ثقيلٌ.. الشّمسُ سَاطِعةٌ.. بلا دِفْءٍ.. المذياعُ يُثرْثرُ.. وَمنْصورٌ مُضْطجعُ على بابِ الدّار.. يلوكُ التّمرَ.. يرمي النّوى بعيدا.بكلِّ ما تملكُ يداهُ من قوّةٍ.. كأنّما يَستعيدُ تحليقهَ في السَّماءِ.. ثُمّ.. إرتطامهٌ.. فجأةً.. على أرضٍ.. قاسية.

ينتصفُ النَّهارَ.. ومنصورٌ ما زال مُستلقياً على بابِ الدّارِ.. وصَوتُ زُبيدةَ يُترثِرُ مِن داخلِ البيتِ.. بكلماتٍ تفوحُ.. حنقاً.

تطلبُ مِنه أن يَعَمَلُ عَمَلاً مفيدا يأكلونَ منه بَدَل تضَيّيعِ الوقتِ في صناعةِ طائراتٍ تسخرُ مِنهُ.. كلّما التقطتَها السَّماءُ.

– «كم أنتِ مسكينةٌ يا زبيدةٌ». كانَ قد مضى على زواجِنا خمسةَ عشرَ عاماً أنجبنا خِلاَلَها.. مُثنى وجاسم.. كانت زبيدةُ

زوجـةً لرجلٍ.. يملك السَّـمـاءَ.. بينَ ذراعـيـهِ.. تشُّع جـمـالاً وحيويّةً.. كـانت تُعُد السّاعاتِ أملاً في لقائي.. أمّا الأن فهي تملُّ وجودي.

وأصبحتْ الهالاتُ السّوداءُ تلبسُ عينيها.. شَحَبَ وجهُهَا.. وأرسلت التجاعيدُ.. خطوطَها.. حولَ فَمِها.. أصبحتْ زوجةً ذابلةً.. لرجلٍ ذابلٍ..

مسَّهُ الغضبُ.. عندما داسَ مُثنّى على طائرتهِ الورقيّةِ.

– «ألم تَرَ كم استغرقَ صنعها منّي وقتاً.. بماذا تريدُ أن تلحقَ يا مُثنّى؟».

– «أُريد أن ألحقَ بالصّحيفةِ.. لكي أبيعَ الأعدادَ المقرّرةَ لي».

– «دعكَ من هذا الهُراء يا مُثنّى وتعالَ نصنعْ الطّائراتِ معاً.. نُحلِّقْ معاً».

ينظر مُثنّى بمرارةٍ إلى أبيهِ ويتركهّ كأنّهُ.. في بحرٍ هائجٍ.. لا يعرفُ هل سيركبُ الموجَ.. أم أنَّ الموجَ.. سيكسرهّ..؟!.

– «لماذا يا مُثنّى هذهِ النّظراتُ المُشفقةُ.. التي تقتلُني ؟!

« لماذا يا مُثنّى تتركُ مدرستَكَ وتعملُ؟ هل تريد أن تخنقني أكثر؟!! يذهب مثنى.. غير عابئ بحديث والده.

فاجأهُ.. صوتُ زبيدةَ.

– « ألا ترى وجهَ مُثنى؟! » كان وجهُ مُثنى جميلاً .. شعرُهُ الأسودُ ينسدلُ على جبينهِ بحيويّةٍ.. تنتشر في عينيهِ.. أحلامٌ.. تتقافزُ بمرحٍ.

أمّا الآن.. بدا مُثنّى أكبر بعشر سنين.. وجْهُهُ بدا غامقاً من وهج الشّمس.. لسانهُ ساكناً.. يلوّح بالجرائدِ للمارّة.. وعيناهُ ترمقانِ النّاسَ.. بعجزٍ.. يقتل فيهِ طفولةً.. لم يشعر طعمَها..

– « صدّقيني يا زبيدة.. إنّي.. أكرهُ.. نفسي.. لا أتقنُ عملاً آخر.. صدّقيني الطّيرانُ بالنّسبةِ لي حلمٌ.. وعندما يُحرم الإنسانُ من الحلمِ.. يحُسَّ بأنَّ رأسَه ليسَ لهُ.

تنظر زبيدة إلى منصور.. وقد تعبت من محاولات إعادة ملامحه ثانيةً إلى وجهه..

– « إذا كَرِهَ الإنسَانَ نَفسَه.. فإنّهَ سيُسْحق من أوّلَ هبّةِ ريحٍ ».

تذهبُ زبيدةُ.. يتلمّسُ منصورُ الطّائرةَ الورَقيّة برفقٍ..

يبتسمُ يغمضُ عينيهُ ويطيرُ ويطيرُ يفتحَ عينيهِ.. على صوتِ زُبيدة تصيحُ من الداخِل..

يدخلُ منصُور مُتثاقلاً نحو الدّارِ.. صراخُ زبيدةَ ما زال يتعَالى: «ما بِكِ يا زبيدة؟!».

جاسمٌ .. يامنصورُ.. إنّه يتنفسُ بصعوبةٍ.. علينا أن ننقله إلى المشفى.. ألم أقُل لكَ.. افعل شيئاً غيرَ صناعةِ الطّائرات.. محمد مريضٌ منذ أيّام وأنتَ ترتمي على باب الدّارِ كقِطٍّ ينتظرُ العظمَ الذي يُرمَى إليه».

– «ماذا أفعلُ يا زبيدةُ؟! استحالتْ طائرتي الورقيّة حُلْماً.. يَمُدُّني بنبضٍ.. مُتقطعٍ لكنَّهُ يكفيني .. لأعيش».

– «لا يكفي أن تعيشَ.. يجبُ.. أن تُقاومَ.. يجبُ أن تُحبَّ نفسَكَ.. يجبُ أن تنتصرَ على نفسِكَ أوّلاً.. يجب أن تنتصرَ يا منصورُ!!.

يحملُ منصورٌ جاسماً إلى المشفى.. يمشي بخطواتٍ تُسابقُ الزّمَن.. يتمتم: «وإن ذهبنا بهِ إلى المشفى وإن .. كان معي نقود ماذا ينفع ذلك.. وليسَ هناك دواء..».

زبيدةُ تطفو تارةً.. تغرقُ أخرى.. تحملُ جاسم جيئةً وذهاباً في انتظارِ الطبيبِ.. الدّنيا جاسم وكلُّ ما عداهُ.. لا معنى لهُ..

الغابةُ أغلقتْ أبوابَها.. الأعشابُ نمتْ حولَ الأشجارِ العملاقةِ كَبُرَتْ بعد أن سرَقت غذاءَ الأشجار الأصيلةِ..

الأعشابِ المُتشجرةُ.. استحالْت أظافر نحاسيّةَ تشرطُ الأجساد بلا تخديرٍ.

يدُ جَاسم تبردُ.. جِسْمهُ يثقل.. وَجهُهُ يَزرَقُّ.. جَسُدهُ يتَشَنّجُ ثُمّ يرتخي.. يرتخي.. يتمزّقُ صوتُ زبيدة.

منصور استحالَ ظلاًّ باهتاً.. يندفع الأطبّاءُ.. ينزلون الدَّرج بسرعة.. مُخفضين رؤوسهِم.. يتراكم في عيونَهم.. سكينة الموت وضجيجُ الاحتضارِ.. يُسرعُ الأطبّاء.. يرفعون جسد جاسم السّاكن إلى خارجِ الغابةِ المُظلمةِ.. تُخفي زُبيدة وجهِها في صدرِ منصور..

بَدت الغابةُ شُرفةً لا أَعمدةَ لها.

الصُّرصار الأكبر

يندَسُّ من تحتِ الأبوابِ.. ومن ثُقوبِ الجدرانِ.. بخفةٍ ورشاقةٍ.. ولا ينتبهُ إليهِ أحد.. إلا بعدما يكونُ هناك جيشٌ من الصراصير.. استوطنوا.. مختلفَ بقاعِ المنزلِ.. الذي لم ينتبه أهلهُ لسدِّ ثُغورهِ..

يدخلُ أعتابَ البيوتِ ليلعقَ ممّا في صُحونِها.. يستوطُن قليلاً .. ثُمّ يتركُ نسلَه تتولّى المهام.. تشقّ الجسد إلى شقوقٍ كثيرةٍ.

ها هو الصُّرصار الأكبرُ يستعرضُ قامته ذهاباً وإياباً بكلِّ جرأةٍ ووقاحةٍ.. وربّةُ المنزل ترمقُه بنظراتٍ تفيضُ غِلاًّ، تَصْرُخُ ولا مغيثَ، حتّى أهل بيتِها لم يصدقوا ما يعيثُه الصُّرصارُ الأكبرُ فسادا في أرجاءِ المنزل.

يركضُ الصُّرصار الأكبرُ.. في أنحاءِ المنزلِ.. فرحاً.. يمدُّ أصابعَهُ في كلّ عينٍ.. لا يتعثرُ.. لاينزلقُ.. كان يُثيرُ إعجابَ زُملائه فيصفّقونَ له عندَ كلِّ نصر.. فهو يدخلُ الجحورَ والثغورَ.. ويحصلُ على مستلزماتِ حياتِه بكافّةِ الحيلِ.. تتفتَّحُ لهُ الأبوابُ الموصدةُ.. وتركعُ لهُ الرّؤوسُ المنتصبةُ.

– «لا بُدَّ أن يقع». هكذا صَرختْ ربّةُ المنزل.. وهي تحُاوُل أن تُعيدَ للمنزلِ رونقَهُ ولعقلِها وعيَه. «لا بُدّ أن أتماسكَ..» هكذا خاطبتْ نفسَها.

استخدمتْ كافّةَ أساليبِ الدّفاعِ.. ابتداءاً بالحجارةِ وانتهاءاً بالأحذيةِ التي كانت ترتدُّ مكسورةَ الجناحِ.

صوتُ موسيقى يتعالى.. ينقلبُ الصُّرصارُ الأكبرُ من شدّةِ الزّهوِ والفَرَحِ.. على ظهرِهِ.. يسترخي.. إيقاعُ الموسيقى.. يعلو.. رقصاتُ رجليهِ ويديهِ تتناغمُ بحركاتٍ بهلوانيّةٍ تثيرُ الضّحكَ.. أمّا شارباهُ الطّويلانِ فإنّهما يميلانِ على بعضِهما طرباً.

صوتُ الموسيقى يخفتُ.. يحاولُ الصُّرصار الأكبرُ أن يرجعَ لوضعهِ الطّبيعيّ فلم يقدر، رقصاتُ رجليهِ ويديهِ ورفّةُ شاربيهِ الطّويلين تحوّلت إلى رعشةِ الموتِ.

تتابعهُ ربّةُ المنزل.. يتحلّقُ حولَهُ أفرادُ أُسرتها.. تنظُر إليه نظرةَ تشفٍّ.. وبحجرٍ كبيرٍ.. تهشمُ جسَدهُ.. وهي تصرخُ: «الزّهو العالي.. يعمي الأبصارَ.. الزّهو العالي.. يعمي الأبصارَ».

أرتالٌ من النّمل.. تُغطّي جسدَه.. تلفُّه.. تحملُ شاربيهِ اللذين كان يلوِّحُ بهما دائماً.

تفرحُ ربَّةُ المنزل.. فها هو كبيرُ الصّراصير قد أصبحَ.. فُتاتاً يقتاتهُ أضعفُ المخلوقاتِ.. ها هو ينزلقُ من القمّةِ الى القاعِ بلحظةِ التماعٍ.. وسيطرة جنون اللعبة.. على عقلِه.

الصّراصيرُ الوليدةُ.. تتحسّسُ طريقَها.. تخرجُ سَريعاً من ثقوبِ الجُدرانِ.. تَبحثُ عن أعتابٍ أُخرى.. وأرصفةٍ غافيةٍ.. تستوطن تشققاتِها.

الماضي ينبضُ.. دوما

يَدقُّ البابَ بقوَّةٍ.. مذعورةً تَقِفُ.. تُشْعِلُ النُّورَ.. تَدورُ في أَرْجَاءِ الغُرفةِ.. مثلَ سَاعةٍ ضَيَّعَتْ عقربَها.. وَلا تعرِفُ في أيِّ زَمَنٍ ترسُو.. البابُ ما زالَ يدقُّ.. تَصرخُ بِصَوتٍ مكتومٍ: «ليسَ سهلاً على أمرأَةٍ في مثلِ سِنِّي.. أن تعيشَ وحيدةً بلا أولادٍ ولا زوجٍ.. آه لو عندي ولد.. حتّى لو كان أرعناً.. كان على الأقلِّ سيكسِبُ حَياتي وله الأمهاتِ وُطهرَ قلوبهنَّ.. كانَ يُمكنُ أن يجعلَ أنفاسي حارَّةً..».

ـ «كم كنتُ غبيّةً حينما كانت أُمِّي تُطفئُ أنواري.. تطردُ خُطَّابي.. وأبقى كَعُصفورٍ وَقَعَ في فخّ.. يظنُّ أنّ جناحيهِ قد فُقِدا.. مع أنَّهما ما زالا يرفّانِ.. ها أنا أَتقَاضى ثَمَن غَبَائي ضرباتِ سكّينٍ في ليلي الكئيب.. كانت أُمِّي تَصُكُّ علَى وجهِها

عندما يأتي عريسٌ مُتواضعُ الحالِ.. وتعتبرُ ذلكَ إهانةً لَهَا ولعائلتِها العريقةِ.. وظلّت أُمّي ترفضُ الخُطّابَ حتّى نَزَت التجاعيدُ على وَجهي وَمَرَّ الخُطّابُ على مَحَطّتي.. لكنَّهم لم يَعُودوا يلتفتونَ إلى قِطاري الذي قطعَ مسافاتٍ طويلةً..؟!!.

تناثروا خارجَ البيتِ.. أصواتُ بساطيرهم تدّقُ الأرضَ بغرورٍ.. وغَضَبٍ لَم أسمَعُه.. منذُ وقت ما الذي يريدهُ هؤلاءِ الجنود.. من امرأةٍ وحيدةٍ.. عانسٍ؟! لن أفتحَ لَهُم.

أَشعَلَتْ النارَ.. دثَّرتْ جَسَدها بشالِ أُمِّها الأنيقِ وبدأتْ تُعدُّ كوباً من الشّاي.. في مُحاولةٍ لبعثرةِ الخوفِ الذيَ بَلَغَ حلقَها.

– «في كلّ مرّةٍ انتفضُ كجناحِ طائرٍ وقَع ولا يقوى على النُّهوضِ. كُلَّما دقَّ البابُ»

قطراتُ الشايِ تَحرِقُ لسانَهَا.. تشتهي أن تشربَ كوباً من الشّاي دونَ أن تلسَعَها القطراتُ السّاخنةُ.

يُدُقُّ البابُ مرّةً أُخرى.. وَكَطِفلٍ مذعورٍ يُهَدَّدُ بالضّربِ.. بَدأَتْ تَركضُ في أنحاءِ المنزلِ.. كُسِرَ البابُ اندفَع الجنودُ يتَحلّقونَ حَولَها.. أحدهم يوّجهُ بندقيّةً إلى رأسِها والآخرُ ينبشُ البيتَ.

– « أينَ هُوَ . . ؟ » « مَن ؟! » .

– « فَتِّشوا البيتَ وأن لم تجدوا شيئاً فتّشوا مرّةً أُخرى » .

وأخذت تضحكُ بصوتٍ عال :

– « إخرس » .

يعود الجنديُّ لقائده : « لا يا سيّدي ليسَ هُنا أيُّ مخربّ » .

يَخْرجُ الجنودُ مُسرعين . . مُحاولينَ أنَ يلحقوا بحِقدِهم . . تُقفِلُ البابَ وتبدأُ في ترتيبِ مُحتوَياتِ المنزِل . . تَقَعُ صُورةُ والدتِها في يدِها . . تَنظُرُ بِوَقَارٍ . . وكِبرياءٍ .

أَخَذْت تضحكُ بِصَوْتٍ عالٍ . . تَبادلا النظراتِ . . تَنظُرُ إليها نظرةَ عتابٍ .

تُخَاطِبُها أُمُّها بانكسارٍ : « سامحيني . . لقد ظَلَمتُكِ » .

تَمسَحُ دَمعَتَها . . تسقطُ بقايا الدّمعةِ على الصّورةِ . . فَتَختَلِطُ بقايَا الدّمعةِ . . بِملامِحِ الأُمِّ . . ترتفعُ الأصواتُ حَولَهَا . . تَرتَسِمُ ابتسامةٌ حقيقيّةٌ على وجهِها . . فجأةً . . وهي تَسمع صوتَ طِفلها البكرِ يُؤنِّبُ الصَّغيرَ . . وَتِلكَ تَصرُخُ في المطبخِ لا تستطيعُ

الوصولَ إلى الرفِّ العلويِّ في الثَّلاجةِ لِتناول الماءِ.. وزوجُها في غُرفةِ النَّومِ يصرخُ غاضباً مُطالباً إيَّاها بمشاركتِه في البحثِ عن الزَّوجِ الآخرِ للحذاءِ.

رمقت والدتها بنظرة استغراب.. لَفّتْ جِذعَها بتحدٍّ.. وبِصوتٍ كُلُّهُ زهوٍ..

خَاطبتْ أُمَّها:

« ألا تسمعينَ ضجيجَ الأطفالِ حولي؟ »

دارَت في الغُرفةِ فَرَحاً.. ألقت بنفسِها على السّرير بِطَرَبٍ فَصَفعتَها بُرودتُه.

احتِكارُ الفَجيعةِ

لقد كانَ الإعلانُ عن وفاتِها أنيقاً.. جذّاباً.. يحتلّ نصفَ صفحةٍ في ثلاثِ صُحفٍ كبرى... وقد ضمَّ الإعلانُ عن الوفاةِ.. أسماءَ إخوتِها وأخواتِها.. ومناصبَهم وكُناهُم ومن كانَ في ذمّةِ الله منهم.. وأسماء بناتِها وأبنائها.. وأنسبائهم وأقربائهم.

لم تَعتَد أن يُصاحبها شعورٌ بالرّغبةِ الشّديدةِ لزيارةِ بيتِ عزاءٍ كهذهِ المرَّةِ.

سَارَعتْ إلى الوقوفِ أمامَ دولابِ الملابسِ لاختيارِ ما يُلائمُ المناسبةَ.. ارتدت طقماً أسودَ أنيقاً.. لفتْ رأسَها بإشاربٍ أبيضَ مُطرّزٍ بدقّة.. انتعلتْ حذاءً. ذا كعبٍ عالٍ.. ابتاعتْهُ من أكبر متاجرِ المدينةِ وحملتْ حقيبتها المُرقّطة بالفضيّ..

نظرَت إلى نفسِها في المرآة.. وقالَت لزوجِها: «ألا يليقُ لِباسي بمناسبةٍ كهذه».

– « وهل أنتِ ذاهبة لحفلٍ ما.. حتّي تعتني بنفسكِ إلى هذهِ الدرّجة؟ ».

– « لا تذهبْ بعقلكَ بعيداً.. إنّه.. أهمُّ من أكبر حفلٍ.. إنّهم أُناسٌ يحتكرونَ حتّى الفجيعة؟ ».

– « ماذا تقصدينَ؟ ».

أقصِد يا زوجي العزيز: « هل تستطيع أن تنعاني بإعلانٍ كبيرٍ وأنيق في إحدى الصّحفِ الكُبرى؟ ».

أكملَتْ حديثَها وهي تفتحُ بابَ المنزلِ وتهمُّ بالخروجِ:

– « أتدري؟ لستُ مهتمّةً كثيراً بإسداءِ المواساةِ لهم ».

نظرَ زوجُها إليها نظرةَ استغراب. أكملَت: « أريد أن أتعرّفَ على مراسيمهم في العزاءِ كانت أُمّي تتحدّث كثيراً عنهم.. عن الستائر.. والأرائك وأكوابِ الماءِ الكريستال وفناجين القهوةِ المُذهّبةِ.. و...و... على فكرة لأُمّي طرفُ قرابة بِهم ».

وَصَلَتْ بيت العزاء... بخطواتٍ مُرتبكةٍ.. ووجهٍ مربوطٍ إلى العبوسِ بمهارةٍ.. ولم تنسَ خلالَ ذلكَ استراقَ النّظرِ إلى محتوياتِ المنزل..

لمَ تستطعْ المُضيَّ في تمثيلِ دَور المُعَزّية لوقتٍ طويلٍ.. ورأسُها يميلُ يمنةً ويسرةً يلحقُ بأحاديث كثيرة.. تبدأُ بالأدعيةِ المُستحبّةِ للميّتِ.. وتنتهي بالزّواجِ والطّلاقِ وشراءِ الشُّققِ وجودة الكنافةِ المُقدَّمة عن روح الميِّت.

حتّى أهلها لم تلمحْ في وجوههم تعابير وَجع .. إنما هي.. مراسيمُ لشدِّ عضلاتِ الوجهِ بصرامةٍ.

اعتدلَتْ في جلستَها.. جَحَظَتْ عيناها قليلاً ثُمّ حاولت أن تُبدي عدمَ اهتمامٍ بما يحصلُ.. إحساسٌ غريبٌ داهَمها.. المشاعرُ التي جاءت بها نكثت غَزْلَها.. وتملّكتها مشاعر أُخرى.

بصوتٍ.. لا يُنافسُ الضجَّةَ التي حولَها.. تمتمتْ: «آه... الجسدُ الغضُ الذي يغمرُهُ.. الرّيشُ والنّشيدُ والحلمُ الطّويلُ.. لا يُدركُ أنّه في يومٍ مهاجر.. يتسرّبُ بينَ شقوقِ الأرضِ.. يذوبُ فيها والقوافلُ بعدهُ تُواصلُ سَيْرَها.. مُخْتالة يلذ لهم الرق».

يقشَعِرُّ جَسَدُها.. لم تستطِع أن تتملَّق أكثَر.. سرقت خطواتِها للخروجِ سريعاً من بيتِ العزاءِ.

الحـــرف العنيـــد

بحجمِ الغليان الذي في قلبها.. تحضنُ قلَمها.. وبحجمِ حُبّها.. تُصمّم.. وتنثر أوراقها وتُلاحق فلولَ أفكارٍ هاربةٍ.. لمحتها أثناء انهماكها.. بمهامّ كثيرة.. فأسرعتْ تُحاولُ التقاطَها.. عانَقَتها.. وحمدت اللهَ.. أنّها مازالت تنبض.. لم تختنق ولم تتلوّث.

باندفاعٍ محبّب.. تطلّعت نحوَ زوجِها.. ناولتْهُ أوراقَها ينظر إلى الأوراق نظرةً خاطفةً.. علامات التجهُّم.. تشقّق وجههِ.. يلهث.. تعلو أنفاسُهُ.. كأنّهُ يريدُ اللحاقَ بشئٍ فاتَهُ.

يُلقي بالأوراقِ على المِنْضدة.. تتناثرُ الأوراقُ أرضاً تختلطُ مع صوتِ التّلفاز.. يكملُ تقليبَ الصُّحفِ بلا مبالاة.

لملمتْ أوراقَها وهي تعضُّ بصمتٍ على دموعٍ تُوشكُ أن تنخرطَ في حالةِ مُواساة.

بقيتْ ساهمةً للحظَات.. حاولتْ كَتْمَ غيظِها بابتسامةٍ خاطبتهُ مُحاولةً.. الضّغطُ على جرحِها بلاصق..

هاشم أراك صامتاً – أريدُ أن أعرفَ رأيك فيما أكتب.

أجابَ وهو يضحكُ بتهكُّم: «رأيي في هذهِ الخربشات!! هل تُصدقينَ نفسكِ؟! الأفضلُ أن تُتقني فنّ الطَّبخِ أوّلا».

ضربت بكفّها على المِنْضدة.. واصلت أناملُها العزفَ على الحرفِ العنيد.. تسلّلت إلى كلّ الجرائد باسم مُستعارٍ.. تناسلت حروفُها حتّى غدت كتاباً أنيقاً.

بدا عليه الإرباكُ.. أصابَهُ الذّعرُ وهي تناولهُ كتابها الأوّل.

صَفَعَها.. تحسّست خدَّها المُحمرّ.. فارقَ قلبها القهر.. أغمضت عينيها.. اكتشفت أنّها كشطت غُبارَ الكون.. من تحتِ جلدِها.

القـــط

بلا مبالاةٍ.. يسترخي فوقَ تنور الشّارعِ.. يتثاءَبْ..تقفُ سيّارةٌ.. تُطْلِقُ البوقَ مُنبهةً القطّ.. القطّ مازالَ.. هناك.. لم يأبه.. للتّحذير.

السيّارات المُسرعة.. تصطفّ الواحدة تلو الأُخرى..

القطُّ مازالَ.. رابضاً فوقَ رقاب.. الأبواق.. إصرار عجيب على احتضانِ الرّفضِ والمُناكفةِ.. يتمدّد بروعةٍ بديعةٍ.. يتمطّطْ.. ينفض جسدهُ، الأبواقُ ما زالتْ تُطْلِقُ.. التّحذير.. لكنّه.. ما زالَ.. هناك.. يعلن أنّ المساحاتِ الجرداء.. يمكن أن تنبضَ بالخُضرةِ والتّجدّدِ..

أعيتْ الحيلةُ السّائقين.. من جديد أطلقوا الأبواقَ داعينَ القطّ إلى استبدالِ الشّارعِ بمكانٍ آخرَ صالحٍ للاستنباتِ.. فالوقوفُ في وجهِ.. الشّررِ.. خَطَر؟!!

يترجّلُ أحدُ السّائقين من سيّارته.. يطلق السّائقون أصواتَ الأبواق.. يدعونَ القطّ أن يتناغمَ مع.. حداءِ السّيارات فيشعّ من عينيه: «حتماً لن أندحر».

يترجّلُ سائقٌ آخر.. يربت على ظهرِ.. القطِّ.. لكن عينيّ القطّ تستعر.. يرجع.. إلى السّائقين.. يُخاطبهم قائلاً: كأنّ هذا القطّ يرفض أن ينسج حكايةً جديدةً من الرّكوعِ.. لأقدامِ الصّاعدين للأسر؟.

من جديدُ يطلقُ السّائقون أصواتَ الأبواق.. علَّ القطّ المُشاكس يفرّ.. لكنّه بقيَ مزروعاً في الشّارعِ يمارسُ طقوسَ السّكينةِ في الصّمودِ.. يعلن.. بموائه أنّ الحلول يجب أن تنبثق من السّائقين أنفسِهم.. يجب أن يُغيّروا طريقهم.. أمّا هو.. فلن يخضبَ جسدهُ الخَوَر..

القرصان

طَرقاتٌ على الباب... تَقطعُ على الأخوةِ حزنَهم.. تَرجَّل غسانٌ ليفتحَ البابَ.. فإذا برجلٍ ذي شعرٍ أشقرَ مُنسدلٍ على جبهتهِ بحيويّةٍ وحريّةٍ.. لهُ أنفٌ معقوفٌ وابتسامةٌ شاحبةُ صفراءُ.. يقفُ على البابِ مُستأذناً في الدّخولِ.

كانت السّماءُ تزبدُ وترعدُ والبحرُ يصفّقُ أمواجهُ مُرتطماً بقلوبِ الأخوةِ.. الذين لم تمضِ أيّامٌ على وداعِهم لأبيهم...

رحّب الأخوة بالضّيف.. أشعلوا لهُ النَّار لكي يتدفأَ.. وعندما سألوهُ من أينَ جاءَ.. قال:

– «لقد حطّتْ سفينتي على الشّاطِئ القريبِ من منزِلكم.. وكان الجُّو في الخارِج قاسياً فقرّرتُ المبيتَ هُنا.. ريثما تصفو السّماء».

استعرضَ بنظرةٍ سريعةٍ وثاقبةٍ المنزلَ.. أحسّوا بعينيه تلتهمُ الجدرانَ والسّقفَ.

ينسكبُ على أرضيّة المنزلِ.. بجنون ريح تفتحُ أبواباً أليفةً لكنّها.. حادّةً..؟!!

كان المنزلُ الذي يسكنُ فيه الأخوةُ منزلاً جميلاً على تلّةٍ مُشرفةٍ.. مُحاطاً بأشجارِ الزّيتونِ والبرتقالِ.

اقترحَ غسّانٌ على إخوتهِ أن يعطوا الضّيفَ حجرةً من حُجراتِ المنزِل.. حتّى يُغادرَهم.. ويعودَ إلى دياره.. وقال لإخوتهِ الذين نظروا إليه باستغراب:

– «يجبُ أن نكرمَ الضّيفَ وبيتُ الحاج سليمان العبّاسي يجبُ أن يظلَّ مفتوحاً للجميع».

تجهَّم وجهُ محمد وعدنانَ وهمسَ محمدٌ في أذنِ عدنانَ:

«أحسُّ بريبةٍ من هذا القبطان، عندي إحساسٌ بأنّهُ قرصانٌ وسيصبحُ له شأنٌ في بيتنا.. وعندما يصحو أخوك.. يكون قد فاتَ الأوان».

ابتَسم عدنانُ لمحمد . . ابتسامةً تحاصرُ الشَكَّ الذي ملأَ قلبهَ أيضاً وقالَ لمحمدٍ : « لا تُعطِ الأمُورَ أكبرَ من حَجمِها . . البيتُ بيتُنا والقبطانُ مجرّدُ ضيفٍ » .

مرّت شهورٌ . . والقرصانُ يأكلُ ممّا يشتهي وينامُ براحةٍ وأمانٍ . .وفي ليلةٍ من ليالي الشّتاءِ الباردةِ وبينما الجميعُ على مائدةِ العشاءِ . . نفثَ القرصانُ دخانَ غليونِه . . ووضعَ قدماً على الأخرى . . واسترخى على مقعده بتخابُثٍ وقال مُخاطباً الأخوةَ :

ـ « مرَّ على وفاةِ والدِكم وقتٌ ليس بالبعيد . . وأشعرُ أنَّكم مازِلتم رهنَ المصيبةِ . . تآكلتْ جدرانُ المنزلِ . . من الإرباكِ . . أشعر أنّ المنزلَ يطلقُ شهقاتِه الأخيرةَ . . يجبُ أن يتفجّر المنزلُ . . بالحياةِ من جديد » .

نظرَ محمدٌ . . إلى القرصان بغيظٍ :

ـ « ماذا تقصد ؟ » .

غصَّت شفتا القرصان في تضاريس جديدةٍ للحرفِ تصعدُ جبلاً وتهبط وادياً من غيرِ أن يفهموا مقصدَهُ .

قال محمّد: «أرجوكَ أَوْضِحْ».

قال القرصانُ: «أقترح أن يتولّى كلّ منكم مهمّةً في البيتِ فمحمدٌ يتولّى القسمَ العلويَّ من المنزلِ وعدنانُ يتولّى مهامَ القسّمِ السفليّ.. أمّاغسّانُ فيتولّى أمورَ الأرضِ... والحصادِ».

فكَّ قدميهِ عن بعضهما.. وحنى ظهَرهُ قليلاً للأمام – ونظرَ بحنانٍ.. زخّاتُ مطرٍ رقيقةٍ.

عندما تتوزّع المهمّاتُ سيعودُ للبيتِ إشراقَه.

بدا الرّضا.. مُرتسماً على وجوهِ الأخوةِ.. وبدأوا بتقسيمِ المنزلِ.. وكان النّهرُ في تلك اللحظةِ يجرُّ ميَاهه بتثاقُلٍ عابسٍ أمّا البحرُ.. فإنّ أمواجَه بدأتْ تصفعُ الشّاطئ الذي يقيمُ فيه الأخوةُ بحرقةٍ وغضبٍ.

ضحكَ القرصانُ بمكرٍ.. ضحكةً مُجلجلةً.. اختلطتْ بدهشةِ الأخوةِ.

لم يبقَ الوضعُ كما كان.. لاحظَ الأخوةُ فيما بعد أنّهم قليلاً ما يجتمعونَ وأنّهم كلّما حاولوا أن يجتمعوا تتصلّبُ أيديهم

وتتحوّلُ إلى ثقابٍ مشتعلةٍ يحرقُ كلٌّ منها الآخر بمجردِ الاقتراب..

هالهم ما يحدثُ لهم.. تناقشوا بالأمر.. واتّجهوا نحوَ شُرفةِ المنزلِ مُغادرين غُرَفهم.

تناولَ عدنانُ الورقةَ.. التي دوّنوا عليها قرار تقسيمِ مهمّاتِ المنزلِ.. وهمّ أن يُمزّقَها علَّ أيديهم تعبقُ بالمحبّةِ من جديد.

صرخَ غسّان وقال بغضب: «من سيشرفُ على المنزلِ.. ويدير شؤونهَ..و...و..و..و...».

وفي أثناء نقاشهم تناهت إلى مسامِعهم.. أصواتُ هرجٍ ومرجٍ تقتربُ من المنزل.. نظرَ محمّدٌ من الشّرفة.. لم يَرَ شيئاً.. أخذ قنديلَ الضّوء.. ركّز باتّجاهِ الصّوتِ.. فإذا بسفينةٍ أخرى قد حطّت على الشّاطئ..يترجّل منها مئاتُ القراصنةِ؟!!

الثُّـــريا

يُقلبُ جبرَ أوراقهُ المُتناثرة.. فرشَها على الأرض.. أمسكَ ورقةً ورقةً، كلُّ ورقةٍ لها قصّة.. كلُّ ورقةٍ لها قسماتُها ودهشتُها.. أشعارٌ وحنينٌ ودفءٌ تكتوي بها الأوراق.

ها هو جبر يمزّقُ الأوراقَ.. ينثرُها فوقَ رأسهِ تتناثرُ في أرجاءِ الغُرفةِ.. يضحكُ.. ضحكةً هستيريّةً ويعود يُمزّقُ الأوراقَ وينثرَها.

تدخلُ سناء.. مُسرعة «ما بكَ يا جبر؟» يصرخُ بصوتٍ مُمزّقٍ:

– «أخـــرجي.. لا أُريد أن أرى أحـــداً.. لا أُريد أن أرى أحداً».

في عيني هُدى تساؤلٌ كبيرٌ كتمته: «هذا ليسَ جبر الذي انتظرتُه مُنذُ خمسةَ عشرَ عاماً». سارت إليهِ بخُطىً مُضطربةٍ..

كان ينظرُ من النّافذة.. وضعت يدَها على رأسه: «أتدري يا جبر عندما نظرتُ في عينيك وأنت تركضُ بسرعةٍ لِتَتَجاوَزَ القُضْبَان.. أحسستُها سربَ طيورٍ مُحلّقةً، فرحةً لا يحدُّها حَدٌّ وعندما تشابكت يدَاكَ بأيدي رنا وديما أحسستُ بانتصارٍ يرتقُ جَرْحِي المفتوحُ منذُ خمسةَ عشرَ عاماً».

استدارَ جبرُ والدّموعُ تكتنزُ في عينيه: «عندما ركضتُ إليكم يا سناءُ عيون البناتِ حرّضتْ أبوّتي على الاخضرار من جديدٍ. ركضتُ معهن بفرحٍ لم تتجرّعهُ شراييني منذُ زمنٍ بعيد.. وَجَثَتْ خُيولي المُسرجةً على ركبتيها لترفع أحبتها».

لحظاتٌ صامتة مرت على سناء وجبر.

ـ «ما الذي حصل إذاً؟». انتفضَ جسدُ جبر.. مرارةُ القهر انبثقت من عينيهِ الدّامعتين:

ـ «آه يا سناء عندما تُخاطبُك رنا.. أعتدل في جلستي.. تحوط عيناي عينيها.. تتوقّد مشاعري الولهى فإذا لظىً باردٌ يحرقُها».

– « كيفَ.. كيفَ يا جبر؟! ».

– « عندما أسألها عن دراستها.. صديقاتِها.. هواياتِها.. أتدري بماذا أشعرُ يا سناء؟..

– « أشعرُ أنّها تبذلُ جهداً في اصطناع اهتمامٍ بي وبكلماتي.. تبتسُم لي ابتسامةً مُفتعلةً تتشابكُ أصابعُها باضطراب.. تهرَبُ عيناها منّي.. وتسقطُ على الأرضِ.. ثُمّ تمسكُ كتابَها وتدخلُ مُسرعةً إلى غُرفتها.

أمّا رنا فهي تلصقُ وجهَهَا الصّغيرَ.. بَصدركِ تطلبُ منك المصروفَ.. ترمي جسدَها النّحيلَ على السّرير بجانبك تعبثُ بشعركِ.. تخاطبُك بتلقائيةٍ.. بصوتٍ عالٍ.. وعندما تَلحظني تخفضُ صوتَها.. أُحاولُ أن أقتربَ منها.. لكنَّها.. تنكمشُ.

صرخَ جبر.. وضعَ رأسه بينَ يديه: « أحسُّ يا سناء بأنّني كرةٌ يتقاذفني الأعداءُ حيناً والأحبّةُ حيناً آخر ».

– « لا يا جبرُ.. يَجبُ أن تَبقيَ رائحةُ الحلمِ تعبقُ في أنحائِك.. وإلا.. فإنّك ستنتهي.. ستختنقُ ».

– «أُحبُّ أن أذكرَّكِ بأمرٍ قد تكونَ نسيتَه.. عندما كنتَ في السّجن وكنتُ أريدُ زيارتك كنتُ أصحو فجراً.. أتسللُ على أطراف أصابعي.. أرتدي ملابسي على عجلٍ وأهمُّ بالخروج.. فإذا رنا وديما يخرجنَ فجأةً من غرفتِهنّ مُرتديات ملابسهنَّ يصرخنَ: «نُريدُ أن نرى بابا. وأحاولُ أن أقنعَهنّ أنّ المشوارَ طويلٌ والطّريقَ صحراويٌّ متعبٌ فيعلو صُراخهنَّ.. يومَها حملتُهنَّ معي.. وكنتُ يومَها لم أركَ مُنذُ شهر تقريباً.. لأنّكم كنتُم في اضرابٍ عن الطّعام.. الهدفُ منهُ السّماحُ لكُم برؤيةِ أطفالكِم وجهاً لوجه وليسَ من وراء القضبان.. المهمُّ وصلنا.. ودفعتُ إليكَ برنا أوّلاً.. كانت فرحةً، ذهبتُ مع الضّابطِ الذي سيوصلُها إليكَ.. وعندما حملتَها وبدأتَ تدورُ بها في أرجاء الغُرفةِ فرحاً.. اصطدمت عيناها بعينيّ.. صرختُ وصرَخ كلُّ الأطفالِ في الغُرفةِ بالعدوى.

أتذكر ماذا فعلتَ يومها؟

«نعم بقيتُ يا سناء صامتاً لم ألقَ تفسيراً لصراخِ رنا..

غرقتُ في صمتٍ ولمدةِ خمسةَ عشرَ يوماً حتّى موعد الزّيارةِ الثّانية.

وعندما جاءت الزّيارةُ الثانيةُ.. خفتَ أن تسألني فيأتي الجوابُ قاسياً.. بقيتَ صامتاً وفي محاولة منّي لحياكةِ حديثٍ شيّقٍ وتغيّر مشاعرك الحزينةِ سألتُكَ:

– «هل تعرفُ لماذا صَرخَت رنا؟».. نظرتَ إليّ.. انفرشتَ على مدى مساحةِ الكونِ بفرحٍ وأجبتَ: «لا».

– «لقد تعوّدتْ رنا.. أن تراكَ خلفَ القضبان.. فلمّا حملها الشّرطيُّ إليكَ بقيتُ أنا خلفَ القصبان.. فلمّا درتُ بها في أنحاء الغُرفة اصطدمت عيناها بعيناي فصرختْ.. خافتْ أن أكون أنا أيضاً خلفَ القُضبانِ.. أليسَ هذا كلّ الحُبّ؟!» هذا صحيح يا سناء.. لكني الأن أشعر بأني غريب عنهن.

– «آه يا سناء.. أشعرُ أنّي كنتُ في كابوسٍ بشعٍ.. وعندما صحوتُ.. صحوتُ علي حقيقةٍ أبشعَ».

ضربَ بيدهِ على الطّاولةِ بقوّةٍ وصرخَ: «ما الذي فَعلهُ بي هؤلاء الأوغاد؟، سرقوا عمري وشبابي وهاهم ينتزعونَ منّي

بناتي.. إنّهم ينتصرونَ عليَ للمرّةِ الثّانيةِ. يا جبر إنّ الشّعورَ بالهزيمةِ يجعلُ الأعداء يهزمونَك فِعلاً.. أمّا إذا شعرتَ بالإنتصارِ فإنّك حتماً ستنتصرُ، لا تكُن أنتَ وعدوَّك على نفسِك؟!».

«لا بُدّ أنَ يمضي بعض الوقت حتّى تُزهر الغراسُ من جديد».

– «المسألةُ يا سناء أكبرُ من ذلك.. ليست مسألةَ أرقامٍ واحد + واحد = اثنان».

– «إذاً ما المسألةُ يا جبر؟».

– «يا سناءُ.. أب وبناتهُ = حبٌّ ودفءٌ؟». هزّ رأسه يمنةً ويسرة. أصابعُ يديهِ تتشابكُ باضطراب: ليسَ بالتأكيدِ يا سناء، المشاعرُ ليست كمبيوتراً نبرمجُه كيفما نشاء.. ويمكن أن تفترَ أو تتلاشى. لا يا جبر لكنّ هذه المشاعرَ خاصّة –إنّها قدرٌ لا مفرّ منهُ– وضع رأسه بين كفيه وقال: أشعرُ يا سناء أنّي بحاجةٍ لأخلوَ بنفسي».

تخرجُ سناء.. تغلقُ البابَ خلفَها.. يغفو جبر على الأريكة.. تدخُل سناء بعدَ قليلٍ تُوقظهُ لينامَ في فراشه.. يصحو

مُبتسماً مُنتعشاً تستغرب، تسأله سناء: «ما الأمرُ يا جبر؟!.. لقد حلمتُ حُلماً جميلاً يا سناءُ.

خير -إن شاء الله؟.

لقد رأيتُ في المنامِ كأنّ الثّريّا التي في سقفِ الدّار توشكُ أن تقعَ بفعلْ غرباء اقتحموا الدّار.. حاولوا تحطيمَها لكنْ أسرَعَت رنا وديما تمسكان بالثّريّا بكلّ قوّتهما ويُثبتانها بالسّقف».

تبتسُم هدى ابتسامةً تطفىءُ حرائق لطالما عاثتْ في أحداقها.. تشدُّ على كَفَّيْ جبر بقوّةٍ وتسكنُ في عينيهِ التي عصفَ بِهما الوجعُ..لكن ما لبثَ أن تأجَّج دفئاً.

صولةُ الصّعاليك

يأخذُ نفساً عميقاً.. يلفُّ عُنقَه إلى الوراء وبتألّق وينفرُ للأمامِ.. الحجارةُ التي تلبسُها الأرضُ معاطفَ.. تخضبَ قدمي الصّبي عنفواناً.. تمسحُ عَنْهُ وطأةَ الرّكضِ المُحَمَّلِ بأنفاسٍ عاليةِ الصَّحوِ.

عندَ معبر المنطارِ.. تقفُ سيّارةُ للجيش.. الجنديُّ يبادرُ رفيقَهُ وهو يشدُّ على الزّنادِ: «لا بُدّ أن يقفَ هذا الصّبي ولو لثانية».

الجنديُّ الآخرُ: «ولماذا تريدُه أن يقفَ..؟ صَوِّبْ إليهِ الآن».

– «لا.. لا.. قد لا أصيبهُ في الصَّميم...أُريد أن تغفوَ الرّصاصةُ في جَسدهِ فلا تَصحو أبداً لا بُدَّ أن يقفَ.. ثانيةً واحدةً فقط..كفيلةً بأن تجعلَهُ مُضغةً ألوكها، سأعجنهُ كالصّلصالِ.. على هذه الأرضِ.. التي تُومضُ برقاً ورعداً».

يضحكُ.. ضحكةً تغتسلُ بصولة الصّعاليك ساعةً أو بعضَ ساعةٍ..

– «ثُمّ سأتقافز فوقَ عينيه.. أخربشُ ما بينَ السّواد والبياضِ..

آه.. لابُدَّ أن أقتنصَك.. قِف.. قِف.. ولو لحظة».

يقفُ الطِّفلُ فجأةً.. يمضغُ الخوفَ.. يبعثرهُ خارجاً.. ثُمّ ينثرهُ.. خوفاً على خوفٍ.. في وجه الجنديّ يمدُّ يدَه إلى الأرضِ.. يتناولُ حَجَراً، ثُمّ يديرُ وَجَهه للجنديّ.

تتسمّرُ يدا الجُنديّ.. يوشك أن تتعدّى الحدقةُ الفوّهَة.. ترتجفُ شفتاهُ.. ترتخي أوصالُهُ..

صَوّبْ.. صَوّبْ يا رفيقي.. – «لقد حانتْ فرصتكَ»..

هكذا صرخَ الجنديُّ برفيقه.. انطلقَ الجنديُّ.. بعشوائيّةٍ مُضحكةٍ.. يديرُ ظهرَه.. للصبيّ.. تسقطُ طاقيّتهُ أرضاً..

يلوي عُنقَهَ إلى الوراءِ يتعجّلُ قَدَماه.. التي تعرّت ببلاهةٍ.

الصبيُّ.. يُزاحمُ الشَّجرَ.. يُزاحمُ.. أجنحةً بيضاءَ.. تُرفرفُ في المكانِ.. يُزاحم قبائلَ تهزُّ الحرفَ.. تحسبهُ.. سِهاماً..

يطلقُ الصبيُّ ضحكةً.. تهتزّ لها أردافُ الكونِ..

حكايةُ انطفاء

يتطايرُ الرّيشُ.. تنتفضُ الدّجاجةُ.. تنثرُ الدّم في وجه الآخر.. علّهُ يستيقظ.. يداها.. رجلاها.. تتقلّبان.. تُداعبان الرّوحَ.. تُحاول أن تمسكَ بها.. وتعجنها من جديد بالجسد المُتدحرج إلى القمّة..

النّبضُ يغرقُ.. والرّقبةُ الذّبيحةُ تتأرجحُ. وعباراتُ تشييعٍ بدأت تُحاكُ.. وجوهُ الدّجاجِ.. الذي يرقبُ الذّبحَ البارد.. مشرعٌ على إكمالِ الانحسار والتحصّن خلفَ متاريسِ ربيعٍ فانٍ.

تحفرُ الأرضُ بأظفارها.. الرّوحُ تفكّ تأبّطها بالجسدِ رويداً.. رويداً تحفرُ بأظفارها.. جحود.. الألوان والرّيشةِ واللوحةِ.. للرّسام.

الدّهشةُ تعلو عيْنَاها.. ليسَ لمرارةِ الموت.. بل لأنّ السّفّاح يُواصلُ الذّبح بفجور والدّجاجاتُ يُواصلنَ التقامَ الطّعامِ والشّراب والتثاؤب وإغلاق النّوافذ وأحياناً.. يشهقونَ يغمضونَ أعينهم.. لتوغّل الظّلمة.

تضرب بيدها..التّراب.. وتضرب.. وتضرب.. لأنَّ اليقين داهَمها بأنَّ السفّاحَ سيُمزّقُ أشرعةً أُخرى.. سيخربش بملء قدمِهِ.. لوحاتٍ أخرى.

ريشُها المُتطاير.. دمُها.. المُتناثر.. لم ينفض الغبار.. بل أوشك على .. إعلان الانطفاء.

.. بعض كلمات هي كلماتها

قلبُ سميّة.. يدقُّ.. يدقُّ.. كأنّهُ انفطَر.. خرجَ.. من قفصِهِ.. استغربتْ.. هذهِ الحالة التي لم يمرّ بها نادر من قبل.. هي تشعر بهِ.. كما لم يشعر بهِ أحدٌ.. مع أنّهُ يختلفُ معها في الرّأي أدارَ نادر وجهَهُ باتّجاه النّافذة.. حتّى لا يرى العيونَ الصّادقةَ التي كانت تُوقظهُ دوماً.. وحتّى لا يشعر بالأنفاس القويّة التي كان يحبسُها بدعوى أنّهُ يحرسها.

شعرَ أنّ كلّ آرائهِ.. آراء مُتقيحةً وأنّ كلماتها لهب يلسع لكنّهُ يُضيء.

اقتربَ من سُميّة والدّموعُ تعشعش في مُقلتيهِ.. وضعَ يدَهُ على كتفِها.. بحنانٍ مُثقلٍ بالأنين.. لكنّهُ لم يجرؤ على النّظر في عينيها..

آه مـا أصـعبَ أن يـدخلَ المرءُ إلى منزلهِ.. الذي درجَ فـيـهِ خطواتهِ الأولى.. بعدَ أربعينَ عاماً ويجدهُ قد تغيّر ليسَ بفعلِ الغُبار.. بل بفعلِ الغُرباء الذين مددتُ يدي إليهم مُصافحاً فقيّدوني وسخروا منّي.. بلعَ ريقَهُ.. أوثقَ أصابعَهُ بعضها ببعض.

– «أعرفُ أنّكِ تستغربين حالتي.. لكنّي الآن صلبٌ كالحجارةِ وحاسمٌ كزهرةٍ.. أصرّت على النموّ.. رغمَ وضعِها في العتمةِ».

– «آه يا نادر.. كم قُلتُ لكَ.. أنّ طريقَكَ هذهِ لن تُوصلكَ لُمبتغاك وأنّ أسبابَ انكسارك الآن.. تُوسّدك للمُساومة.. لامناصَ لك.. عليكَ أن تصفعَ تسوّلك ويدكَ التي مددتها خاضعاً.. إقبض بها على النّصل».

– «آه.. يا سُميّة.. أمقتُ نفسي.. أكرهُها.. كيفَ صافحتُهم.. أُحِسُّني كعصفورٍ مسجونٍ في قفص».

– «لكنّك بدأتَ تُزقزقُ.. عرفتَ كيفَ تظفر بنفسك».

– «أتدرينَ يا سُميّة؟.. أخشى.. أن يستمرّ جدبُ المواسمِ على تُرابنا».

– «لا عليكَ يا نادر.. ها هو صوتُ الرّعدِ.. واختناقُ الغيمِ يُنبئ بموسمٍ طيّب».

ألقى برأسِهِ على الكرسيّ.. أطلقَ زفراتٍ حادّة ورَجَا زوجتَهُ أن تتركَهُ وحدَه.

تخرج سُميّة.. تُغلق البابَ خلفَها.. مشاعر عارمة تجتاحُها فجأةً.. يبيعها الفرحُ ويشتريها الحُزنُ.

تساءَلت سُميّة.. وهي تحملُ وةَ إلى نادر.. كيفَ يمكنُ أن يتحوّل الإنسانُ من الاستسلامِ إلى الغضب.. إلاّ إذا كانَ الانكسارُ مُفجعاً.

فتحت سُميّة البابَ.. لم تجد نادر.. بل وجدت ورقةً خضراءَ وبعض كلماتٍ هي كلماتها:

– «زوجتي الحبيبة.. أبنائي الأعزّاء.. كم يلزم لكي تعود للتّضاريسِ ملامحُها الأصيلة؟ ساعات قليلة وستخضرُّ مدينتي.. عندما أتناثر كحبّاتِ القمحِ على سهلِها».

وقعتْ سُميّةُ على الكُرسيّ.. تدلّت يداها على جانبيهِ..

نبضاتُ قلبِها تتسارعُ ضجيجُ مدينةٍ بأكملِها بقتربُ من المنزل.

– يركضُ عزّ الدّين.. يُقبِّلُ أُمَّهُ.. يطلب منها رسالةً.. أبيهِ.

– تحضن سُميّة الرّسالة.

– يخطفها عزّ الدّين.

– تصرخ سُميّة: «لماذا.. يا عزّ الدين؟».

– «في يومٍ ما .. سأخطُّ عليها أحرفاً جديدة».

هديرُ القـــرار

ركِبَ سَيَّارَتَهُ بلا بطاقةٍ.. وجهُهُ مُعذَّبٌ بالشَّوارع.. التي تُفتشُ عن اسمهَا.. أَشعلَ السِّيجارةَ بأنفاسهِ.. يقودُ السيّارةَ بسرعةٍ جُنونيّةٍ... الوُجوه تلجمهُ... تعربدُ بنظراتٍ عنكبوتيّةٍ مُستنكرةٍ.. كأنّه مجنونٌ.. الإشارةُ الضوئيّةُ تصفعهُ: «قِفْ.. قِف». لكنَّها.. قد تكونُ الأرحمَ.. لأنَّها تفتحُ ذراعيْها.. بَعدَ قليل.

يصرخُ رأسي بوحشيّة: «عنْدَما تنعتقُ كلماتي من احتشادِ المساءاتِ وتنبضُ حُروفي على الصّفحةِ الأخيرةِ للجريدةِ.. أحِسُّ بِخُضْرةِ الحقولِ.. تغيرُ على اليابسِ.. تَفْرشُ الأرض لمطرٍ مُرْتقِبٍ».

كلماتُهُ سيفُ يَتَّكئُ على غَيمةٍ.. يَهزأُ بكلِّ المُبلّلينَ بالخوفِ.. يُمسكُ عمادَ كلماتِهِ مُستبشراً.. يدقُّ البابَ...

الضّوءُ الأَحمرُ.. فوقَ بابِ رئيسِ التّحرير.. يدعوهُ للانتظارِ.. يجلسُ على الكرسيِّ.. يُمسكُ أوراقَه.. بشغفٍ.. ينطفئُ الضّوءُ الأحمرُ.. يندفعُ عمادٌ إلى البابِ.. صباحُ الخير..

– «آه.. ماذا عندك يا عمادُ؟».

– «تفضّل سيّد محمود». يمسكُ رئيسُ التّحريرِ.. بالأوراقِ.. يبتسمُ إبتسامةً خبيثةً.. يُمسكُ القلمَ.. ويختمُ عليها: غيرُ صالحٍ للنّشر.

– «يا عمادُ.. ألا تريدُ أن تغيّرَ طَريقتكَ في الكتابةِ؟.. أنا مُقتنعٌ بما تكتبُ.. لكن ثمَّة أُمور.. علينا مُدَاراتُها.. والالتفافُ عليها من الوراءِ.

– أرجوكَ يا سيّد محمود.. هذا اسمُهُ.. سجن.. بتٌّ أستغربُ.. ملامحي.. وأنا أستمعُ إليكَ.

يا عمادُ.. حُلَّ وثاقَكَ.. أنتَ تَسّجُن نفسُكَ بنفسك.. أخرجْ بسرعةٍ.. قبلَ أن يتأبطَك طريقٌ مجهولٌ.

– لا أقدرُ.. أيّها الرّئيسُ.. سأُصبحُ.. عبّارةً.. لا أعرفُ أينَ أوليّ وجهي وسيعبرُ العابرون.. ثُمّ ثُمّ ماذا..؟».

- «ثُمّ يبصقونَ عليَّ.. صدّقني لا أقدر.. تناوَل أوراقَه من عَلى طاولةِ رَئيسِ التَّحرير».

يقفْ.. يصرخُ بصوتٍ.. هادىءٍ: «ما تطلبهُ منّي سهلٌ.. يهدهدُ بكاءَ الملايين لكنَّهُ يقودُهم إلى النّسيانِ..

وما أكتبه.. سيُولدُ حتّى.. دونَ شهادةِ ميلاد.. ولا ختمَ السلطان.. ستصلُ حرُوفي بجذورِها.. عاريةَ القدمين.. بأصابعَ مُهترئةً.. ولكنّها ستصلُ.. بعنفوانِ وردةٍ اجتثت جسدَها من رُكام الجليدِ أتدري أيّها الرّئيس.. أراك الآن بصورةِ الرّجلِ الأوّلِ.. البدائي بشعرهِ المنكوشِ.. وشاربه الكثيفِ ولحيته.. التي نبتتْ بفوضى وقطعةِ القماشِ التي يلفُّ بها خصَرهُ وعندما تتكلّم.. تحَملُ.. مُفرادات.. مدينة لم تولدْ من رحمها..

لحظةُ صدمةٍ وذهولٍ.. كسرتْ.. وجهَ الرّئيس..

ضَحِك.. عماد.. بصوتٍ مُتقطّع.. إنّها مُفَارقةٌ.. مُفارقةٌ تُثيرُ الضَّحكَ.. وعادَ.. يضحكُ.. ويضحكُ..

صرخَ الرّئيسُ..

– «أخرجْ.. أخرجْ.. ستدفعُ حياتَك ثمناً لعنادِك».

يكتبُ عمادٌ.. يكتبُ ويكتُبُ لا يستطيعُ أن يُجَمِّلَ التجاعيدَ.

لا يستطيعُ أن ينحني.. لِوجهِ المساءِ.. يُحاولُ الكتابَة.. مرّةً أُخرى.. تبتلُّ روحُه بانكسارات مدينتهِ الرّابضةِ على شاطيءٍ.. مزروعٍ.. بالآثارِ.. المدفونةِ في قاع البحر..

نظراتُ رئيسِ التّحرير.. الكُتّاب في الجريدةِ.. المُراسلون يتأملُها.. يتأملُ نظراتهم عندما انطلقَ كالضّوءِ المهجور.. في فتحةٍ صغيرةٍ.. تنفّسَ بُعمقٍ اتّسعتْ الفتحة حُطّمتْ كلّ الأسوار.. تلمَّسَ وجهَهُ.. تأكّدَ.. أنّ ملامَحه ما زالت في مكانِها.

ها هو.. يقرعُ بسيّارتِه الطّريقَ. ينفخُ في الرّمادِ.. يشتدُّ كضفيرةٍ أصيلة صوتُ طلقات تدَوُي.. تخترقُ.. سيّارةٌ مارَة.. ضاقت بِها.. أودية البائعين.. تتلاحُق شهقاتُه.. يفردُ كفيّهِ كملاكٍ.. يستقبلُ ذَاته.

نجوم صغيرة

تُلقي نظرةً على الأسرَّة الصغيرةِ التي تحتوي المواليدَ الجُدَد بشغفٍ.. الأَسرَّةُ مُرتّبةٌ.. بنت ثُمّ ولد.. تتميّز الأُنثى عن الذَّكر.. بواسطةِ البطاقةِ.. بطاقةُ الذّكرِ.. زرقاء اللون وبطاقةُ الأنثى زهريّة اللون.

تمسحُ العَرَقَ عن جبينها.. تلملمُ ذاتَها المُتشقّقة.. وهي تمسحُ بباطنِ كفِّها وجوهَ المواليد تشعرُ برغبةٍ شديدةٍ في جمع أشلائِها.. التي غاقلتها وفرّتْ عنوةً إلى مشاعرَ قد لا يكونُ لها الحقّ في امتلاكها في يومٍ ما.

عندما.. يخرج المولودُ إلى النّور.. تتلقفهُ هُدى بين يديها بحنان أنثى استولتْ عليها نشوةٌ عارمةٌ لطالما خبّأتها.. لكن.. ما تلبثُ أن تنشط كلّما أطلَّ وجهُ طفلٍ جديد تمسكهُ بينَ يديها..

تضعُه تحتَ صنبور الماء بيد.. واليدُ الأُخرى تحملُ قطعةَ قماشٍ صغيرةٍ.. تنظفُ الجسَد الغضَ يصرخُ.. يصرخُ... تمرّرُ فمِها على وجهِه.. بحنانٍ.

– «لا يا صغيري .. إهدأ.. إهدأ..»

تلفُّ جسدَهُ بقماطٍ أبيض.. تضعُه في السّريرِ.. يضعُ إصبَعهُ في فمِه.. يمصُّ.. يمصُّ..

تمسكُ هُدى .. بَطْنَهَا بشدّةٍ.. تعصرُهُ بينَ يَديهَا.. هَبّةٌ حارّةٌ تجتاحُ جسَدها رَجّةٌ تمتلك أصابعها..

اقتربت إحدى المُمرّضاتُ.. وضعتْ يدَها على كتفِ هُدى برقّةٍ:

– «ما بكِ يا هُدى؟».

– «أتأمّلُ هؤلاءِ الأطفال يا ماجدةُ..».

– «لا عليكِ يا هُدى.. قريباً –بإذن الله– سيرزقُك اللهُ طفلاً أجمل منهم جميعاً».

– «آه يا ماجدة.. أشعر أنّ الكونَ بلا طعم.. عندما آتي إلى

المُستشفى وأبدأ باستلامِ الأطفال.. أقبّلهُم.. أُداعبُهم.. لكن أسهماً مستنكرةً.. يلمحن دقاتِ قلبي.. ينغرسن فيهِ.. بمجرّد أن تأتيَ الأمَّ وتأخذُ وليدَها..».

تُنبّهها ماجِدة.. بأنَّ موعدَ المُغادرة قد حانَ.

ـ «لا أُريدُ العودَةَ إلى المنزلِ.. أتخيَّله دونَ صوتٍ كقبرٍ.. لا أُريدُ العودةَ..».

ـ «وزوجُك؟».

تُشيرُ بيدِها لماجدة أن تذهَب.. تفورُ حُبّاً وغضباً تصرخُ؛ «أأشعلُ بهم النّار؟؟ أأقومُ بخنقهم..؟».

أنفاسُها تتصاعدُ.. كدخانِ سيّارةٍ هرمةٍ بكثافةً وقوّةٍ..

طرقاتْ بأطرافِ الأصابع على النّافذةِ.

ترفعُ رأسَها.. إنّه زوجُها يشيرُ لها.. بأصابعِ يدهِ على رقمِ خمسة.

تفتحُ البابَ :«نعم.. لقد تأخرتُ خمسَ ساعات».

ـ «ما بكِ.. يا هُدى..؟».

ينبعثُ من عينيها لونٌ أحمر قانٍ :« ردّي عليَّ يا هُدى . . إنّها آثارُ اشتباكٍ في عينيكِ » .

تتبعثرُ كلماتُها . .

يُرتبها : « ما ذنبي أنا؟ » .

– « عن أيّ ذنبٍ تتحدّثين؟ » – « لماذا أحملُ كلَّ أطفال العالم بينَ ذراعيَّ . . ولا أملكُ واحداً منهم؟! كلّ صديقاتي اللواتي في مثلِ سنّي أولادهنّ يناهزونَهنّ طولاً . . أشعرُأنّ عمري يتسرّبُ من بينِ أصابعي » .

– « أتدري يا خالد . . لقد فكّرتُ بأنْ أُشعلَ النّارَ بِهؤلاءِ الأطفالِ . . »

– « ماذا تقولينَ يا مجنونة؟! » .

تحني رأسَها . . إلى الأرضِ . . حدقاتُ عينيها . . تتّسع . . ثُمّ تضيقُ . . تضيقُ .

أمسكَ رأسَها . . رفعهُ إلى الأعلى . .

– « أتدرينَ يا هُدى . . ما الذي . . أعجبني فيكِ؟ » .

تتساءلُ بعينيها..؟.

– «يقينكِ .. يا هُدى». تسقطُ نظراتِها إلى الأرضِ.. «ثمّ إنّ الذي يمنحُ الإنسانَ الطمأنينةَ.. هو الرّضا.. بما قسمَهُ اللهُ لهُ..ثُمّ هل الجزعُ.. سيمنحك ما تحلمين به؟».. ثُمّ هل الهدفُ من هذهِ الحياة.. هو إنجابُ الأطفال.. فقط؟ وإذا لم تُنجبي فلا قيمةَ لحياتك؟! هذا محضُ هُراء يا هُدى».

تفتحُ بابَ السيّارة.. يهتزّ جسدُها على كرسّي السّيارة.. ينحني ظهرُها على ركبتيها.. تبكي جُوعاً يأكلُ جسدَها بنهم..

– «لا بأسَ عليكِ يا هُدى.. هذه لحظةُ ضعفٍ لا بُدّ أن تُشعلي بها النّار». رفَعَ رأسَها.. وضعَ وجهَها بينَ يديهِ..الدّموُع تنسابُ بينَ أصابعه..

طفقت عيناها.. تلتهمُ الشّارعَ بسرعةٍ تفوقُ سُرعةَ السيّارةِ المُنطلقةِ نحوَ طريق بعضُ.. لونه شاحبٌ.. لكنّهُ يتّسعُ في تعرُّجهِ الأخير.. تلتمعُ نجومٌ صغيرة.. صغيرةٌ.. تحتضنُ عينيها.. تتنفسُ بعمقٍ.. حتّى لتشعر بأنّ أكسجين الكون يملأ رئتيها.

عندما يُزهِرُ ضميرُ المدينةِ

في هذه الغُرفةِ الكئيبةِ.. ابتدأت أزمانٌ مُزهرةٌ.. على أنقاض أرصفةٍ تبيعُ أبناءها.. كانت الغُرفةُ مليئةً بالحشراتِ والجرذانِ.. مسجونون كأنّنا مُجرمو حَرب.. أجترحنا فضاءاتِ الوطنِ ولوّثنا قسماتِه بالخَراب..

رموهُ داخلَ الغُرفة.. كأنّه كيسُ قُمامةٍ أو علبةٌ مليئةٌ بالفيروساتِ المُعديةِ.. اعتدلَ في جِلسَتِهِ رَتَّبَ هِندامَه.. نظرَ في أنحاءِ الغُرفَةِ.. رَنَّت ضِحكتَهُ.. واختلطتْ بالجدارِ البارد.. وضعَ رأسه بين كفّيه.. وذهبَ في مَهَمّاتِ الحراسةِ والإنشادِ من جديد.

ثبّت رفيقي سميحٌ نظراتِه في السّجينِ الجديدِ.. كان لهُ وجهٌ مائلٌ للسّمرةِ يغمرهُ الهدوءُ والدّهشةُ.

ـ «مرحباً بكَ يا أخي».

ظلّ السّجينُ الجديد.. صَامتاً.. كأنّه سافرَ إلى مدينةٍ أُخرى.. صمتَ سميحٌ.. واعتلت وجهَه علامةُ استفهام كبرى؟!.

مضى اليومُ الأوّلُ.. نقضِمُ الوقتَ بلا شهيّةٍ.. نتابع السّجينَ.. الجديدَ.. الذي حيَّرَنا بقعةٌ كبيرةٌ في عينِية يستوطنُها الحزنُ..

قلت في نفسي: «لا بدّ أن أُحاول مرّةً أُخرى».. تشجّعتُ.. اقتربتُ منهُ.. سميحٌ يُتابعني.. كأنَّهُ يُراهِنُني بأنَّني لَنْ أُفلِحَ في الحديثَ مَعه لكنّني.. صَمَّمتُ.

اقتربتُ منهُ.. ابتسمتُ لهُ: «هل أعِدّ لكَ كوباً من الشّاي بالنّعناعِ؟» نظرَ السّجينُ إليَّ بامتنانٍ أعدَدتُ الشّاي.. قدمتُه لهُ.. شكرَني بإيماءة.

صوتُ خطواتِ الضّابط قادمٌ.. يمسكُ بمفاتيحِه الثّقيلةِ.. الصّوتُ يقتربُ.. يقتربُ.. يستغرقُ السّجينُ التّحديق صوبَ البابِ.. حركاتُ أصابِعِه تضطربُ.. تَسقُطُ قطراتٌ من الشّاي على جَسَدِه.. ينتفضُ.. يقف...

فُتحَ البـاب.. صـرخَ الضّـابطُ.. جـواد الرّاغـب.. زيارة...

عندما سمعنا اسمَهُ بَدَا الأمرُ وكأنَّنا نضيعُ شوارعنا الجريئةَ.. التي تُوصِلنا إلى الرّؤيةِ وسطَ زِحامِ العناوين.

ركضتُ إليه والضّابطُ يقتادهُ..

- «يجبُ أن نتحدّثَ عندما تعودُ..»

- «بالتأكيد».

- «جواد الرّاغب.. جواد الرّاغب يا سميح».. قفزَ سميحٌ من مكانهِ.. «كم نحنُ أغبيـاء.. أَليسَ هو؟».. قالَ سميح بصوتٍ مُتهدِّجٍ: «هو.. هو... آ...آ...».

- «أرجوكَ يا سميح.. أغلق فَمَكَ.. التقطْ أنفاسَكَ الغبيّةَ.. ألم تَكُنْ صُورتُه تملأُ شاشاتِ التّلفازِ والجرائدِ؟!.. يا أخي تغيّرت ملامُحهُ.. كأنّه استنشقَ الوطنَ.. جرعةً واحدةً.. فغدا.. عِملاقاً.. مرَّ الوقتُ بطيئاً.. ونحنُ ننتظرُ عودةَ جَواد.. تُحاصرُنا.. الرُّؤى والحكايا.. التي سيحكيها لنا.. أتذكُر.. أَتذكُر.. يا سميح.. أتذكر المُذيعَ وهو يُطِلُّ بهيئتهِ الحَجَريّة..

يَخرجُ منه صوتٌ مُترع بالفِصامِ وهو يُرَدِّدُ قَامَ الإرهابِيُّ جَوادُ الرّاغب بِقتلِ فتياتٍ.. تُقِلهُنّ حافلةٌ من الضفّةِ الأُخرى.

يومَها ضربْتَ كفّاً بكَفٍّ وصَرَختَ: «اللّهُ أكبر.. اللّهُ أكبر.. أمَّا من يقتاتُونَ لحمنَا فهم مُجَرَّدُ مجانين.. آه.. أخجلَ أن تُغتالَ الصّباحاتُ الجميلةُ في وطَننا».

صَمَتَ الزّمنُ.. جلستُ من جديدٍ أمام الباب.. سميحٌ يغمر رأسه بيديهِ.. يَجُول في الغُرفة.. صوتُ خطواتٍ تقتربُ.. تقترِبُ.. أزيزُ بابٍ يَعلو.. يُفتحُ البابُ.. قفزتُ من مكاني.. ركضَ سميح.. اندفع الدّمُ في جَسَدِي وأنا أمسِكُ بيدهِ.. نظرت في عينيهِ.. قَامَتُهُ طَويلةٌ.. طويلةٌ.. قُلتُ في نفسي: «أسوأ شيء في العالم أن لا ترى الأشياءَ الجميلةَ مع أنّها ساطعةٌ».. ابتَسمَ جوادُ.. أَمْسَكت كلتا كَفَيّهِ بيدي.. شعرتُ بتيارٍ كهربائيٍّ يَسري في جَسدي.. بَدَا جوادٌ.. عاشقاً للصّمت.

توضّأ..صلّى.. عُيونُهُ تصعدُ إلى السّماء.. عاشِقاً راجياً.. يُراسلُ أبناءَهُ الثّلاثة من على سجّادةِ الصّلاة.. يدعو أن يُزهرَ.. ضميرُ المدينةِ الغائب في الشّوارع.. في الأزقّةِ.. في الأُمسيات..

انتهى جواد من صلاته.. أسندَ ظهرَهُ إلى الجدارِ الباردِ.. جُرذٌ يمرُّ من جانبهِ.. يرمقُهُ بنظراتٍ مَرِحَةٍ.. ثُمّ يهربُ.. يبتسمُ جواد.. يكملُ تسبيحه ارتياح يعمُّ وجههُ.. يُضيءُ جبينهُ.. تشجّعَتْ.. اقتربَتْ منهُ:

– آهِ يا أخي.. كم تمنّيتُ لقاءَكَ.. سمعتُ القصّة من التلفازِ والجرائد.. انتابني في تلكَ اللحظات شعوران: شعورٌ بأنّ العالَم غريبٌ وضيّق، وشعورٌ بالرّضى والاضطجاعِ على سهلِ الكون بقوّة.

– أُحبُّ أن أسمعَ منكَ.. مع أنّي أُصدّقكُ.. ولكن ليطمئّن قلبي.

– آهِ يا أخي.. أحسُّ أنّ الكلمات تقضمُ الحَدَثَ.. تتلصّصُ عليهِ.. لكنّها لا تعكسهُ في مرآتها.. كنتُ في عناقٍ مع سماءِ الوطن شرقِهِ وغربِهِ أقفُ على نقطةِ الحدود بيني وبينَ وطني الآخر.

– رُويداً.. رُويداً.. اقتربت حافلةٌ من الضفّةِ الأُخرى.. الشّمسُ تُرسلُ أشعّتها الحمراء.. إيذاناً بالوداعِ.. أدركت أنّ صلاةَ

العصرِ قد تفوتني.. توضأتُ.. استقبلتُ القبلةَ وبدأتُ أُصلّي..

وإذا بأعشابٍ طحلبيّةٍ تنمو حولي.. بشكلٍ مُفاجئ.. يصرخنَ..

يسحبنَ السّجادة من تحتِ قدمي.. يهتزّ جسدي تحتَ وطأةِ الشدّ

والصّراخ.. يقفنَ أمامي.. يضعنَ أصابعهنّ في آذانهنّ.. يُخرجنَ

ألسنتهنّ.. من أفواههنّ..

لم أُخطّط.. لم أُفكّر.. بدأتُ أسعل.. أسعل دَمَاً.. أقذفهُ

في وجوههنّ.

مكتبة عبدالحميد شومان العامة

A0585480